

الدرس الخامس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، اللهم علّمنا ما ينفعنا وزدنا علماً ، واجعل ما نتعلمه حجةً لنا لا علينا يا ذا الجلال والإكرام . ونواصل قراءتنا في كتاب «أصول الإيمان» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له .

قال المؤلف رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :
وله عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمَعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنِطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ)).

قال رحمه الله: ((وله)) أي للإمام مسلم رحمه الله في صحيحه ((عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً)) أي إلى النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمَعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنِطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ)) هذا الحديث ساقه المصنف رحمه الله في باب معرفة الله والإيمان به لأنه حديث عظيم في التعريف بالرب جل وعلا ؛ وأنه سبحانه لم يخلق هذا الخلق عبثاً ولا أوجدهم سدى ، بل خلقهم ليأمرهم وينهاهم ، ومن أطاعه أعد له ثواباً عظيماً ، ومن عصاه أعد له عذاباً أليماً . الجنة أعدت للمتقين الطائعين ، والنار أعدت للكافرين الجاحدين ، وفي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وفي النار من النكال والعذاب الأليم والأهوال ما لا يخطر ببال .

والمصنف رحمه الله ساق هذا الحديث في باب معرفة الله عز وجل ليعرف المسلم من خلال هذا الحديث أن الله عز وجل عدلٌ وذو فضل ؛ فمن قام بطاعته سبحانه وتعالى وعبادته نال من فضل الله ونعيمه ورحمته ومنه سبحانه ، ومن نكل عن الصراط وكفر بالله وأعرض عن دينه عامله الله سبحانه وتعالى بعدله وأناله ما أعدّه سبحانه وتعالى للناكِلين المعرضين من العقاب الأليم .

فهذا الحديث بابٌ عظيم في التعريف بالله عز وجل ببيان أنه عدلٌ ، وأنه سبحانه وتعالى ذو فضل ، وأنه جل وعلا ذو رحمةٍ ومنٍّ وإنعام ، وفي الوقت نفسه ذو عذابٍ أليم ، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿تَبٰى عِبَادِیْ

أَنِّیْ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِیْمُ (٤٩) وَأَنِّ عَذَابِیْ هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِیْمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠] ؛ فالحديث فيه من التعريف بالله ما في

هذه الآية ونظائرها ، ﴿تَبٰى عِبَادِيْ اَنِيْ اَنَا الْغَفُوْرُ الرَّحِيْمُ﴾ (٤٩) وَأَنْزَعَابِيْ هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيْمُ ﴿فهو جل وعلا ذو رحمة واسعة وأيضا عذابه أليم ؛ ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ﴾ [غافر: ٣٠] ، فالله جل وعلا عنده نعيم وعنده عذاب ، والحديث يدل على هذا المعنى ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : ((لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمَعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنِطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ)) ؛ فعنده نعيم عظيم ورحمة واسعة ، وفي الوقت نفسه عنده عذاب أليم وعنده نار وعقاب .

وهذا الحديث كما نبه العلماء رحمهم الله من الأحاديث العظيمة التي تُحدث عند الإنسان إذا أحسن فهم الحديث وتأمله تحدث عنده توازن في باب الرجاء والخوف ؛ وهما ركنان قليبان للتعبد لله سبحانه وتعالى ، فالله عز وجل يُعبد رجاءً لثوابه وخوفاً من عقابه ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧] ، وقال جل وعلا: ﴿وَيَدْعُونَنَا رِعَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] . فهذا الحديث يُحدث للعبد بتأمله له وتأمله في معانيه توازناً في باب الرجاء والخوف ، والعلماء قالوا : ينبغي للعبد أن يكون رجاءه وخوفه متوازنين ، لا يغلب الرجاء على الخوف ، ولا يغلب الخوف على الرجاء ، وإنما يمضي في عبادته وتقربه إلى الله عز وجل باعتدال وتوازن بين الرجاء والخوف. حتى إن بعض العلماء شبَّههما بجناحي الطائر ، الرجاء والخوف ، وأن الطائر إذا قُصَّ أحد جناحيه لم يتمكن من الطيران أو إذا اختل أحد جناحيه لا يتمكن من الطيران ، ولا يتوازن طيرانه إلا إذا كان جناحيه يعملان بشكل متوازن دقيق ، وهكذا الذي ينبغي أن يكون عليه المتعبد أن يكون في تعبده لله سبحانه وتعالى بين الرجاء والخوف ، لا يغلب الرجاء على الخوف ؛ لأنه إذا غلب الرجاء وأصبح جانب الرجاء مغلباً عنده وليس عنده خوف يحدث عنده عدم خوف من عقوبة الله جل وعلا ، فلا يأمن مكر الله سبحانه وتعالى ، وإذا غلب جانب الخوف على جانب الرجاء أيضا يختل عنده الأمر ؛ فقد يئأس من روح الله عز وجل بسبب تغلبه لجانب الخوف ، بينما إذا أتى بهما باعتدال وتوازن راجٍ خائف اتزنت الأمور عنده ، والذي يُحدث التوازن عند العبد في هذا الباب: أن ينظر في نصوص الكتاب والسنة التي في الرجاء وأيضا نصوص الكتاب والسنة التي في الخوف ؛ فمن أعمل نصوص الرجاء وأهمل نصوص الخوف ، أو أعمل نصوص الخوف وأهمل نصوص الرجاء اختل الأمر عنده ، فالمطلوب هو التوازن بإعمال والنظر والتدبر في نصوص الخوف والرجاء معاً . وهذا الحديث جمع الأمرين للعبد ؛ جمع له أمر النعيم العظيم وسعته وسعة رحمة الله عز وجل ، وأيضا جمع ذكر العقاب الأليم وبشكل واضح وقوي جدا ؛ مما يجعل العبد بتأمله للحديث يكون متوازناً في رجائه وخوفه .

قال: ((لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ)) يعني من شدتها وأهوالها وأنواعها وفظاعتها ((مَا طَمَعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ)) هذا يفيد فائدة في قوله «مَا طَمَعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ» من ينظر إلى شدة العقوبة وأهوالها ويقف في نظره إلى هذا

الحد ما الذي سيحدث له؟ من نظر إلى هذا الجانب «ما عند الله من العقوبة» ووقف عند هذا الحد لم ينتقل إلى الجانب الآخر في الحديث ما الذي سيحدث له؟ الجواب أمامك؛ قال: ((مَا طَمَعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ)) يقنط الإنسان ، لو وقف الإنسان عند نصوص الخوف والوعيد يصاب بالقنوط ، ولهذا قال: ((مَا طَمَعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ)) ، ولهذا لا يصح أن تقف عند هذه الجملة من الحديث ولا تقرأ الجملة التي بعدها حتى يتزن الأمر عندك؛ مثل حال من يقرأون ﴿تَبٰى عِبَادِىْ اَنِىْ اَنَا الْغَفُوْرُ الرَّحِيْمُ﴾ ويقف ولا يكمل ما بعده ﴿وَاَنْزَعٰى عَذَابِىْ هُوَ الْعَذَابُ الْاَلِيْمُ﴾ ، فهذا الذي يقول ﴿تَبٰى عِبَادِىْ اَنِىْ اَنَا الْغَفُوْرُ الرَّحِيْمُ﴾ ويقف ؛ تجده يأمن من مكر الله ، فتراه مستمر في المعاصي والذنوب والأخطاء والآثام وغير ذلك وهو لا يزال يقول: ﴿تَبٰى عِبَادِىْ اَنِىْ اَنَا الْغَفُوْرُ الرَّحِيْمُ﴾ فيكون آمناً من مكر الله عز وجل ؛ وهذا باب شر على العبد وباب تفلت من الأمر والنهي والقيام بطاعة الله سبحانه وتعالى ، ولهذا قال هنا: ((لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوْبَةِ مَا طَمَعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ)) .

((وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَطَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ)) ؛ الله عز وجل عنده رحمة واسعة ، رحمة عظيمة جدا ، لكنه أخبر عز وجل أنه سيكتبها لأهل الإيمان ، وأن الكافر عندما يلقي الله يوم القيامة لا مطمع له في رحمة الله ، لكن لو أن الكافر علم بالرحمة الواسعة ، وممر معنا شيء من التفاصيل التي تبينها ((لله أرحم بعباده من هذه بولدها)) ، ولو علم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد . إذاً هذا الحديث الجانب الآخر في الحديث يفيد بأن الإنسان لو نظر إلى جانب الرحمة فقط ولم ينظر إلى جانب الخوف يأمن من مكر الله ، يبقى يقول أن الله رحيم وأن الله غفور وأن الله كريم إلى آخر هذه الأمور وينسى عذابه الأليم .

فالشاهد أن الحديث يعطي العبد توازناً عظيماً في باب الرجاء والخوف وفي باب معرفة الله سبحانه وتعالى ، وأيضاً فيه تنبيه في باب المعرفة أن المسلم كما أنه ينبغي عليه أن يعرف الله عز وجل بأسمائه وصفاته التي هي أسماء الرحمة والبر والإحسان والإنعام والإكرام والمن والعطاء إلى غير ذلك ، ينبغي أيضاً أن يعرفه بصفاته عز وجل التي هي صفات العقوبة والانتقام والبطش بالظالمين وإهلاك المبطلين ، حتى يكون عنده أيضاً توازن في باب الرجاء والخوف؛ رجاء الله وخوف عقابه، لكن من اقتصر على أسماء وصفات الإكرام والإحسان ولم يتأمل في عقاب الله وانتقامه وما أعده من العذاب والنكال فهذا لا يتحقق له الاستقامة في هذا الباب ولا يستتم له طيرانه وسيره لله عز وجل وما يقرب إليه . فهذا الحديث حديث عظيم جداً في باب معرفة الله سبحانه وتعالى والإيمان به .

قال رحمه الله تعالى :

وللبخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ)).

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث في صحيح البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ)) ؛ شراك النعل: هو سير النعل ، ونعل الإنسان قريبٌ منه لأنه في قدمه؛ فهو قريب منه ليس عنه ببعيد .

قال: ((الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ)) فهذا الحديث له تعلق بما قبله بمعرفة الله عز وجل وذلك بمعرفة ثوابه وعقابه ؛ ثوابه الذي أعده لمن أطاعه ، وعقابه الذي أعده لمن عصاه ، وفي الحديث هذا تبين إلى أن ثواب الله قريب وعقابه قريب ، ثواب الله عز وجل لمن أطاعه قريبٌ جداً أقرب لأحدكم من شراك نعله، وعقاب الله عز وجل لمن عصاه أقرب لأحدكم من شراك نعله ، الثواب قريب والعقاب قريب .

فهذا الحديث يفتح للإنسان باب زوال الغفلة عن قلبه وطول الأمل والانقطاع عن العمل والطاعة أو الوقوع في المعصية ؛ فيقال له : انتبه إن كنت مطيعاً فاعلم أن ثواب الله سبحانه وتعالى لك قريب ، وإن كنت خلاف ذلك فاعلم أن عقابه قريب . ولا أبلغ من هذا الوصف قال: ((أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ)) ، ولهذا يأتي أحاديث كثيرة تبين قرب الجنة والنار ؛ مثل قوله عليه الصلاة والسلام: ((مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نِدَاءَ دَخَلَ النَّارَ))، ((مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ)) الجنة قريبة ، ((مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ ذُبِرَ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا الْمَوْتُ)) ، الجنة قريبة من أهلها والنار قريبة من أهلها ، ليس بين أهل الجنة والجنة إلا الموت ، وليس بين أهل النار والنار إلا الموت ، والموت قد يأتي الإنسان بعد لحظة ، يعني بعد ساعة وساعتين أو أقل أو أكثر، فليس بين الإنسان وبين ثواب الله ونعيمه وجنته -الإنسان المؤمن- إلا أن يموت ، وليس بين الكافر وبين عقاب الله وناره إلا أن يموت ، فالجنة قريبة والنار قريبة .

إذاً هذا حديث في باب معرفة الله عز وجل وأنه سبحانه وتعالى ثوابه وجنته قريبة ممن أطاعه ، وأن عقابه وناره أيضاً قريبة ممن عصاه ، وهو كسابقه يفتح للإنسان باب الاعتدال في الرجاء والخوف ، فيكون بين ناظره في أعماله وطاعته قرب الجنة وقرب النار ، فعلة للطاعة وتركه للمعصية يقربه من الجنة ، وتركه للطاعة وفعله للمعصية يقربه من النار ، وهو لا يريد النار وإنما يريد الجنة فيحدث عنده توازن ؛ رجاء وخوف يمضي به بإذن الله تبارك وتعالى إلى سديد الأقوال وصالح الأعمال .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : ((إِنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبُئْرِ قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ فَنَزَعَتْ لَهُ مَوْقَهَا فَسَقَتْهُ فَغَفَرَ لَهَا بِهِ)) ، وقال : ((دَخَلَتِ النَّارَ امْرَأَةٌ فِي هَرَّةٍ حَبَسَتْهَا لَا هِيَ

أَطْعَمَتَهَا وَلَا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ)) ، قال الزهري : «لئلا يَتَّكِلَ أَحَدٌ وَلَا يِيَأَسَ أَحَدٌ»
أُخْرِجَاهُ .

ساق رحمه الله هذين الحديثين لبيان ما سبق وهو أن يكون الإنسان في أعماله معتدلاً متوازناً في رجائه وخوفه ، وعقاب الله عز وجل قريب ، قد يفعل أمراً لا يُلقِي له بالاً يهوي به في النار سبعين خريفاً ، وقد يعمل شيئاً من أعمال البر يراه الناس قليلاً وهيناً يصدق فيه مع الله ويخلص فيه لله تبارك وتعالى فيرتفع به في عالي الدرجات في جنات النعيم، فالرجاء بابه مفتوح وواسع ، وأيضا العقوبة سبيلها كبيرٌ وواسع ، وأمورٌ يسيرة تدني الإنسان من الثواب وعالي الدرجات ، وأمورٌ أيضاً يسيرة من السيئات قد يبلغ بها مبلغاً عظيماً في نيل العقوبة ، ولهذا ينبغي للعبد أن ينظر في هذه الأحاديث ؛ الأحاديث التي تحرك الرجاء في القلب والأحاديث التي تحرك الخوف في القلب .

أورد أولاً حديث أبي هريرة ((أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا)) يعني كانت ترتكب البغي وهو الحرام والفاحشة ((رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِنُورٍ قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ)) رأت كلباً بهذه الصفة في يوم حار يعني يوم صائف واشتد به العطش وكان عند بئر ولا يتمكن أن ينزل للبئر ليشرب ، فيطوف حول البئر يريد الماء وأدلع لسانه من شدة العطش ، فوقع في قلبها رحمة له ، رحمت هذا الكلب وقع في قلبها رحمة له ((فَنَزَعَتْ لَهُ مُوقَهَا)) يعني خفها الذي في قدمها ، ونزلت في البئر وملئت موقها ، وأمسكت بموقها في الغالب في فمها ، وأخذت بيديها تصعد من هذا البئر، كل هذا العمل لا يعلم به إلا الله عز وجل ، هي لم تقم به ليراها إنسان فيمدحها ويقول مثلاً شهمة أو مثلاً صادقة أو شيء من هذه الألقاب ، هي لم تفعل ذلك إلا رحمةً بهذه البهيمة وصدقاً مع الله سبحانه وتعالى وطلباً لثوابه عز وجل . لا يقبل الله عز وجل أي عمل من الأعمال إلا إذا كان قُصِدَ به التقرب إلى الله ، يعني هذه المرأة لو أنها كانت قامت بهذا العمل من أجل أن ناساً حولها يمدحونها على هذا العمل لم يكن عملاً صالحاً .

ولهذا نبه العلماء أن هذه المرأة لما قام في قلبها من الصدق والإخلاص والنصح والرحمة فباشرت بسبب ذلك هذا العمل نالت هذا الثواب العظيم، ولهذا قال العلماء عند هذا الحديث : فيه دلالة على فضل التوحيد والإخلاص في عظم الثواب وكبر الثواب ؛ فهذه امرأة لما قام في قلبها من التوحيد والصدق والإخلاص لله سبحانه وتعالى ونزلت في هذا البئر صادقةً مخلصَةً لله عز وجل غُفِرَ لها ، وإلا كم من إنسان يعمل أموراً أعظم من ذلك ولكن لا يقوم فيه من الإخلاص والصدق مع الله فلا ينال هذا الثواب . فالحديث من الدلائل العظيمة على أهمية الإخلاص والصدق مع الله جل وعلا ، وأن العمل القليل يعظم بالتوحيد والإخلاص ، ولهذا قال العلماء: قليل العمل بالتوحيد خيرٌ من كثير العمل بغير التوحيد أو بالرياء أو بالسمعة. قليل من العمل بتوحيد وإخلاص مع الله

سبحانه وتعالى خير للإنسان من عمل كثير بلا توحيد ولا إخلاص لله جل وعلا ، فهذه المرأة فازت بهذا الثواب العظيم قال: ((فَغُفِّرَ لَهَا بِهِ)).

الحديث الثاني قال : ((دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هَرَّةٍ حَبَسَتْهَا)) يعني جاءت بها عندها في حجرة وأغلقت باب الحجرة ونافذتها ولم يصبح لهذه الهرة مكان تخرج منه حتى تأكل من خشاش الأرض الفئران وغيرها من الحشرات ، ولا هي أيضا جلبت لها طعاما في هذه الحجرة تأكل منه ؛ فبقيت الهرة محبوسة مغلق عليها الباب تريد طعاما ، وماتت وهي على هذه الحال .

الحديث الأول يدل على رحمة القلب ولينه وما فيه من الشفقة والعطف والإحسان، وهذا الحديث يدل على غلظة القلب وقسوته وشدته وعدم رحمته ، تأتي بهذا الحيوان وتجعله في حجرة وتغلق الباب عليه ثم يبقى في جوع إلى أن يموت!! هذا يدل على قسوة في القلب وغلظة وشدة .

فيقول هنا : ((دَخَلَتِ النَّارَ امْرَأَةٌ فِي هَرَّةٍ حَبَسَتْهَا لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))؛ عندما تقرأ هذا الحديث والحديث الذي قبله يعرفك بالله سبحانه وتعالى ويزيل عنك ما يقع فيه كثير من الناس من خلل في هذا الباب ؛ إما برجاء عندهم لا خوف معه ، أو خوف لا رجاء معه؛ وهذا كله خطأ ، بل الحق هو التوازن .

في باب الأعمال الصالحة لا تستهن بأي عمل ، اصدق مع الله في أي عمل صالح يرضاه عنك سبحانه وتعالى وشرعه لك ، اصدق مع الله فيه وإن كان في عينك أو في أعين الناس يعتبر عملاً زهيدا أو عملاً قليلا أو عملاً يُظن أن ليس له ثوابا عظيما دعك من هذا التفكير ، العمل الصالح وإن قل اصدق مع الله فيه ، قد يكون عملاً صالحا تفعله مرة تراه يسيراً سبب لغفران ذنوبك ، جاء في صحيح مسلم أن رجلاً مر بطريق ووجد في الطريق غصن شجرة ذا شوك فقال : «والله لا أدع هذا في طريق المسلمين فيؤذيهم» فنحّاه عن الطريق ، فشكر الله عمله فأدخله الجنة. إزالة هذا الغصن من الطريق قد يُزال لسبب آخر ، يمشي الإنسان في طريق ويرى غصن شوك وأناسٌ بعيدون يقول أنا أحمل هذا الغصن حتى يروني ويقولون فلان يُحسن ، ما أصبح عملاً تقرب به صاحبه إلى الله ، أو مثلاً يقول "هذا حتى لا أقع فيه" يصبح عملاً خاصاً به هو ، لكن نظر هذا ما قام في قلبه من إحسان للناس قال «والله لا أدع هذا في طريق المسلمين فيؤذيهم» ، ففي قلبه رحمة وإحسان ولطف كبير في حق الناس فأماط عنهم الأذى من طريقهم ، فشكر الله عمله فأدخله الجنة . إذاً في باب الأعمال الصالحة لا يتقاع الإنسان عملاً ((ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق)) صادقاً مع الله في جنب المودة بين المسلمين والمحبة تلقى أخاك بوجه طليق قد ترتفع بهذا درجات عالية ، ((إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا)) ، ((الْمُؤَطَّنُونَ أَكْنَفًا)) ، فلا يستهين الإنسان بعمل .

فهذا الحديث يفتح لك بابا عظيما في باب الرجاء حتى في الأعمال الزهيدة القليلة التي تُرى في عين الناس أنها قليلة وأن ثوابها قد يكون قليل جدًا ما يدريك ، قد يكون هذا العمل بصدقك مع الله ونصحك لعباد الله سبب لغفران ذنوبك ورفع درجة درجاتك عند الله عز وجل وعتقك من النار ودخولك الجنة .

وعندما تأتي للحديث الآخر؛ هذه دخلت الجنة بكلب ، وهذه دخلت النار بكرة ، فكلبٌ دخلت به امرأة الجنة وهرة دخلت بها النار ؛ فلا يستهين الإنسان بأعماله ؛ هذه عاملت الهرة بإساءة فكانت إساءتها سببًا لدخولها النار، فهذا أيضا ينبهك أنك لا تستهين بمعصية ، لا يقول الإنسان وماذا يعني هرة وهلكت وماتت وماذا يكون! لا يستهين الإنسان بمعصية ، قد يتحاصر الإنسان عمل ويراه في عينه حقيرًا وهو مثل الجبال في خطورته عليه، ثم يمضي في حياته مستهينًا بالذنوب حتى يصبح حاله مثل حال المنافق والعياذ بالله ، وقد جاء في الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا)) يفعل الذنب تلو الآخر ولا يبالي ولا يكثر.

فعلى كل حال هذا الحديث من الأحاديث العظيمة في باب التعريف بالله عز وجل وما أعده من ثواب وما أعده من عقاب ، وأن ثواب الله قريب من الإنسان ، وجنته قريبة من الإنسان ، ما شاء الله هذه المرأة كانت في عمل فاسد وكتب الله لها هذه الخاتمة الطيبة من الصدق مع الله والنصح لمخلوقاته جل وعلا والرحمة والشفقة ونحو هذه المعاني التي قامت في قلبها ؛ فكانت سببًا لغفران ذنوبها . كم يتساءل كثير من التائبين : عندي ذنوب كثيرة وربما يستولي عليه شيء من القنوط بكثرة ذنوبه "عندي ذنوب فعلت كذا وفعلت كذا وما تركت كذا إلا.." انظر هذا العمل انظر إلى الأعمال الصالحة التي هي أكبر منه والطاعات المقربة إلى الله فهذه ترفع عن الإنسان القنوط. والجانب الآخر أو الحديث الآخر أيضا يفتح لك بابًا عظيمًا في الخير وهو أيضا أن تكون دائما خائفًا من عذاب الله .

إذا حديث الكلب يقوي فيك الرجاء ، وحديث الهرة يقوي فيك الخوف ، وأنت مطلوب منك هذا ومطلوب منك هذا ، حديث الكلب هذا يقوي فيك جانب الرجاء ، وحديث الهرة هذا يقوي فيك جانب الخوف ، وينبغي أن تمشي في الأمرين معًا خوف ورجاء ؛ ترجو رحمة الله سبحانه وتعالى وتخاف عذابه . وإياك أن يكون تعبُّدك لله بواحد من هذين دون الآخر ، يعني بالرجاء دون الخوف أو بالخوف دون الرجاء ؛ فهذا يحرفك عن الإيمان الصحيح والمعتقد الحق ، ولهذا قال من قال من العلماء : «من عبد الله بالحب وحده -يعني بدون رجاء وبدون خوف- فهذا زنديق ، ومن عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجئ ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري يعني من الخوارج ، ومن عبد الله بالحب والرجاء والخوف فهو مؤمن موحد» الذي يجمع بين هذه الأمور الثلاثة الحب والرجاء والخوف .

والعلماء رحمهم الله يسمونه هذه الأمور الثلاثة «أركان التعبد القلبية»؛ بمعنى أن كل عبادة تقترب بها إلى الله عز وجل يجب أن تقيمها على هذه الأركان؛ تعبد الله رجاءً لثوابه وخوفاً من عقابه وحباً له جل وعلا ، كل عبادة تصلي تصوم تتصدق أي عبادة تقوم بها تقيمها على هذه الأركان : الرجاء للثواب ، والخوف من العقاب ، وحب الله سبحانه وتعالى .

وقد جُمعت هذه الأركان الثلاثة كما نبه على ذلك المصنف في بعض رسائله جمعت في فاتحة الكتاب ؛ ففي قولك ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الحب ، لأن الحمد: هو الثناء مع الحب ، فإذا قلت ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ مستحضراً ما يُحمد عليه سبحانه وتعالى من الأسماء الحسنى والصفات العلا والنعم التي لا تعد ولا تحصى تحرك في قلبك جانب الحب . فإذا قلت ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ وتدبرت هذا الاسم وما يدل عليه ما الذي يتحرك في قلبك؟ ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، ثم إذا أتيت إلى الآية التي بعدها ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وتفكرت أيضاً في هذا الأمر ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ١٧-١٩] ما الذي يحصل لك؟ تخاف . فإذا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تحرك الحب ، ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ تحرك الرجاء ، ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ تحرك الخوف؛ بهذه الثلاثة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ، ولهذا قال رحمه الله «فجاء قوله إياك نعبد بعد هذه الثلاثة» والمعنى: إياك نعبد أي نخصك يا الله بالعبادة بالحب الذي دل عليه ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، وبالرجاء الذي دل عليه ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ، وبالخوف الذي دل عليه ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ . وهذه السورة المتكرر قراءتها للمسلم في صلواته المفروضة وفي نوافله أيضاً تُحدث له التوازن في هذا الباب؛ ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ، ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فيه رحمة وفيه يوم دين يوم حساب وعقاب وجزاء ، وكل هذا الأمر لابد أن يستحضره المسلم حتى يكون على توازن في معرفته بربه سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

وعنه مرفوعاً : ((عَجِبَ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِالسَّلَاسِلِ)) رواه أحمد والبخاري.

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث ((عنه)) أي عن أبي هريرة رضي الله عنه ((مرفوعاً)) إلى النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِالسَّلَاسِلِ)) ؛ فهذا أيضاً من الأحاديث التي تفتح للعبد باباً في معرفة الله سبحانه وتعالى ، وأن الأمر بيده سبحانه وتعالى ؛ أمر الهداية والصلاح وأمر الضلال كل ذلك بيد الله

كما قال عز وجل: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨] ، فالهداية بيد الله سبحانه وتعالى ، وهو سبحانه وتعالى إذا كتب لعبده هدايةً يسرّها له ، فبعض عباده يكتب له سبحانه وتعالى هدايةً ينشرح صدره للخير يشرح صدره للإسلام ويُقبل عليه ويتقوى ويتمكن منه ، وآخرون يكتب لهم هدايةً ولا تكون هدايتهم بقوة الأولين وإنما هداية يُقادون فيها إلى الهداية بالسلاسل ، فيكونون مهتدين قودًا إلى الهداية ، وآخرون يكونون مهتدين منشحة صدورهم إلى الهداية مقبلة عليها والأمر بيد الله ، وآخرون لا تكتب لهم هداية ؛ فهذا يجعل الإنسان يُقبل على الله ويعرف الله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته ، وأن هذا الخلق بتدبيره وتيسيره سبحانه وتعالى ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ؛ فهذا يفتح للإنسان باب عظيم في معرفة الله .

قال : ((عَجِبْ رَبُّنَا)) وهذا فيه إثبات هذه الصفة لله سبحانه وتعالى التي وصفه بها رسوله عليه الصلاة والسلام . وفي قراءة في القرآن الكريم ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢] وعلى هذه القراءة تكون هذه الصفة ثبتت في القرآن الكريم ، وأما في السنة فقد ثبتت في أحاديث كثيرة جدا ؛ ((عَجِبْ رَبُّنَا مِنْ قُتُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غَيْرِهِ)) ، ((عجب ربكم إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة)) ، أحاديث في هذا المعنى كثيرة جدا فيها إثبات العجب صفة لله تبارك وتعالى .

والقاعدة في هذا الباب عند أهل السنة والجماعة : أن ما أثبتته الله جل وعلا لنفسه وما أثبتته له رسوله عليه الصلاة والسلام يُمرُّ كما جاء ويُؤمن به كما ورد ، لا يُتلقى بتحريفٍ باطل ولا أيضا يتلقى بتشبيهٍ فاسد ، بل يُثبت لله سبحانه وتعالى على الوجه اللائق بجلاله وكماله سبحانه وتعالى على حد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ؛ ففي قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فيه نفي التمثيل ، وفي قوله ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ الإثبات لما أثبتته الله سبحانه وتعالى من الصفات الكاملة والنعوت العظيمة التي أضافها سبحانه وتعالى لنفسه .

فثبت ما ثبت لله عز وجل من صفة في هذا الحديث بإثبات الرسول عليه الصلاة والسلام لها ، فمن إيماننا بالله ومن معرفتنا به سبحانه وتعالى أن نؤمن بأنه يعجب كما أخبر عليه الصلاة والسلام ، وفي هذا الحديث وفي أحاديث أخرى أخبر عليه الصلاة والسلام أمور يعجب منها الله سبحانه وتعالى ، وعجبه ليس كعجب المخلوق ، المخلوق قد عجب من شيء لكونه لا يعلمه ، أو لكونه لا يدرك أبعاده ، أو لحصوله على خلاف ما يتوقعه ، أو لغير ذلك من الأسباب ، وهذه كلها لوازم لعجب المخلوق ، ولا يجوز بحال أن يُجعل لازم الصفة باعتبار إضافتها إلى المخلوق لازماً للصفة باعتبار إضافتها إلى الخالق ، بل صفات الله سبحانه وتعالى تخصه وتليق بجلاله وكماله سبحانه ، وصفات المخلوق تخص المخلوق وتليق بضعفه وعجزه وكونه مخلوقاً ، وما أضيف إلى الله سبحانه وتعالى من الصفات فلوازمها الكمال ، وما أضيف إلى المخلوق من الصفات فلوازمها النقص ، ولا يصح بحال أن يُجعل

لازم الصفة باعتبار إضافتها للمخلوق لازماً للصفة باعتبار إضافتها إلى الخالق ؛ هذا كلام باطل ، بل الصفة التي تضاف إلى الله تخص الله جل وعلا وتليق بجلاله وكماله سبحانه وتعالى . فالعجب هنا صفة ثابتة لله وهي تضاف إليه عز وجل على الوجه الذي يليق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه .

قال هنا : ((عَجِبَ رَبُّنَا)) ، وأيضا قوله «عجب ربنا» فيه التنبيه على أن الأمور كلها بتسخيره لأنه هو الرب ربنا، فالرب هو المالك ، الرب هو الخالق ، الرب هو المتصرف ، الرب هو الذي بيده أزمة الأمور ، الرب الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، هذه كلها من معاني الربوبية ((عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِالسَّلاْسِلِ)) .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((وَمَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ يَدْعُونَ لَهُ الْوَلَدَ ثُمَّ يَعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ)) رواه البخاري .

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث في باب التعريف بالله والإيمان به سبحانه وتعالى ؛ قال صلى الله عليه وسلم : ((مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ)) عندكم رُسِمت خطأ «ما أحداً صَبَرَ على أذى» ، والألف التي بعد الدال تتبع الكلمة الثانية «أصبر» ، فالألف ليست لكلمة «أحد» وإنما للكلمة التي تليها .

((مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ يَدْعُونَ لَهُ الْوَلَدَ ثُمَّ يَعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ)) وهذا فيه معرفة الله عز وجل بهذه الصفة «الصبر» ، وأنه سبحانه وتعالى صبور جل وعلا ، والنبي عليه الصلاة والسلام أخبر عن ربه جل وعلا بذلك ؛ ((مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ)) ففيه أن الله عز وجل صبور ، فنحن نؤمن بهذا الوصف الذي وصفه به رسوله عليه الصلاة والسلام ونعرف ربنا بذلك أنه سبحانه وتعالى صبور ، وأخبرنا النبي عليه الصلاة والسلام على مثال على صبره سبحانه وتعالى ، ولهذا قال : ((مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ يَدْعُونَ لَهُ الْوَلَدَ ثُمَّ يَعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ)) ؛ دعوى الولد هذا قولٌ عظيم قولٌ إِدَّ كبيرٌ جدا ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿ [مرجم: ٨٨-٩١] كلمة عظيمة جداً في غاية الخطورة وفي غاية الكفر والضلال والإلحاد في حق الله سبحانه وتعالى أن يُدعى له الولد ، وهو جل وعلا يدعون له الولد ويصبر ، صبور ، ما أحد أصبر على الأذى منه ، يدعون له الولد ثم يعافيه ويرزقه!! فأنت ترى في الناس من هو ملحدٌ زنديقٌ كافِرٌ عنيدٌ يحارب الله ويحارب أوليائه ويحارب دينه ولا يزال الله عز وجل يعافيه في صحته ويرزقه مالا ، لا يهلكه فور إعلان ما يعلن من الكفر والزندقة ؛ فهذا من صبره جل وعلا وأنه سبحانه وتعالى صبور .

فالواجب على المسلم أن يعرف ربه بما عرّفه به رسوله عليه الصلاة والسلام ، وهذا يفتح للإنسان باب في هذه المسألة «مسألة المعرفة بالله» ؛ أن الإنسان إذا وقع في المعاصي ووقع في الآثام وفي الكفر وفي الإجماع ويرى نفسه لا يزال ممتعاً ولا يزال يأتيه الرزق والمال ويوسع عليه في الرزق ليس هذا دليل على مكانته عند الله ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كلاً﴾ [الفجر: ١٥-١٧] يعني ليس الأمر كما تظنون ، قد يكون الإكرام بالتوسعة والصحة والعافية قد يكون هذا استدراج ، وكذلك قد يكون ما يصيب الإنسان من مرض أو سقم أو غير ذلك أو فقر ليس مهانة للإنسان عند الله ، «كلاً» يعني ليس الأمر كما تظنون ؛ يعني أن الإنسان إذا وسع عليه فيه المال والصحة والعافية هذا دليل على مكانته عند الله ، أو إذا ضيق عليه في الرزق وأصيب بالفقر أو المرض هذا دليل على مهانته عند الله كلاً ليس الأمر كذلك ، فالإنسان قد يوسع له في الرزق والعافية وهو ليس له مكانة، كافر معرض لكن الله عز وجل يمهله ، وإمهال الله له هذا من صبره سبحانه وتعالى؛ فهو صبور يمهّل ولا يهمل ، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] يمهّلهم ولا يهملهم سبحانه وتعالى .

فإذا هذا باب في المعرفة بالله جل وعلا ؛ إذا عرف الإنسان أن الله عز وجل يصبر على الأذى يسمعه فلا يكون متماد في الأذى لأن هذا يكون صبر من الله عز وجل على الأذى الذي يسمعه من العبد ثم بعد ذلك يأتي هلاك العبد بغتة ، فلا يغتر الإنسان بأنه فعل أموراً عظيمة أو آثاماً خطيرة وصحته باقية ، بعض الناس يغتر يرى صحته باقية ، يرى ماله باقياً ، يرى الخير عنده والنعمة متوالية .. فيظن أن الأخطاء الكبيرة التي وقع فيها ليست مؤثرة ويقول في نفسه "لو كانت مؤثرة لأثرت في النعمة كان أخذ الله مني هذا الذي أعطاني ، فكونه لم يأخذ مني هذا دليل على أن هذه الأمور ليست مؤثرة" ؛ فهذا من الأشياء التي يخطئ فيها كثير من الناس فيتمادى في العصيان ، عندما يكون ممتعاً بصحة وعافية ونعمة ومال إلى آخره وفي الوقت نفسه لا يزال مستمراً في أخطائه ، فلينبه العبد في معرفته بالله إلى هذا الحديث قول النبي : ((مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَىٰ أَدَىٰ يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ يَدْعُونَ لَهُ الْوَلَدَ ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ)).

قال رحمه الله تعالى :

وله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَىٰ: يَا جِبْرِيلُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ ؛ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ، ثُمَّ يَنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ؛ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ)).

ثم أورد المصنف رحمه الله هذا الحديث في التعريف بالله سبحانه وتعالى بهذه الصفة العظيمة وهي أنه يحب جل وعلا، كما قال عن نفسه في القرآن: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [البقرة: ١٧٧] ، فهذه صفة ثابتة لله ثبتت في القرآن وثبتت في سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، فمما يجب على المسلم أن يعرف ربه به أنه يحب جل وعلا ؛ يحب أنبياءه ، يحب أوليائه ، يحب طاعته ، يحب الطائعين من عباده ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ، فالمسلم عليه أن يعرف هذه الصفة، يعرف أن الله عز وجل يحب ، ويعرف أنه يحب الطاعة ويبغض المعصية ويكره الكفر ولا يرضى لعباده الكفر ، وإذا عرف ذلك يجاهد نفسه في معرفة الأمور التي ينال بها محبة الله جل وعلا . والله وضع لنا في القرآن ميزاناً في هذا الباب ، قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١] يحبكم الله متى ؟ مرتبطة بقوله «اتبعوني» ، بمعنى: كلما عظمت متابعتكم للرسول عليه الصلاة والسلام واثتساؤكم به واقتداؤكم بهديه عظم نصيبكم وحظكم من محبة الله لكم .

فمحبة الله للعبد لا ينالها العبد بمجرد ادعائه ، اليهود إخوان القردة والخنازير أحقر عباد الله وأخسهم وأشهرهم وأعظمهم بغياً وظلماً وعدواناً يقولون «نحن أبناء الله وأحباؤه» ، إذا كان هؤلاء إخوان القردة والخنازير يقولون هذه المقالة «نحن أبناء الله وأحباؤه» ؛ هذا يدلنا على أن الدعوى هذه سهلة على اللسان ، سهل على لسان أي إنسان أن يقول الله يحبني أو نحن أحباء الله ، هذه من أسهل ما يكون ، سهلة وكثير من الناس خفيفة على لسانه ، وربما ربط محبة الله له بأمور معينة ، دولة من الدول الكافرة مشهورة بالفوز في لعب كرة القدم ، فالشعب هناك يقولون كما ذكر لي بعض الإخوة يقولون "نحن الله عز وجل يحبنا بدليل أننا دائماً ننتصر في كرة القدم" ، الدعوى هذه سهلة جداً على اللسان ، يقول "الله يحبني بدليل أنا كذا ، الله يحبني بدليل أعطاني كذا" هذه سهلة جداً . ولهذا ابن كثير رحمه الله عليه نقل كلمة جميلة جداً رائعة لأحد السلف في تفسيره لهذه الآية، قال أحد السلف: «ليس الشأن أن تحب ولكن الشأن أن تُحَبَّ» ، يعني ليس الشأن في هذا الأمر أن تدعي أن الله يحبك ، لكن الشأن أن يحبك الله فعلاً ، فانتبه بماذا تنال محبة الله لك . ولهذا أيضاً قال ابن كثير رحمه الله : أن هذه الآية تدل على أن من ادَّعى محبة الله دون لزوم الشرع الحمدي والنهج النبوي بأن دعواه كاذبة ، ونقل عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال : «زعم قوم أنهم يحبون الله حباً شديداً فأنزل الله قوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾» ، ولهذا أيضاً يسمي العلماء هذه الآية «آية المحنة» ، بمعنى: من أراد أن يمتحن نفسه في هذا الباب فليمتحن نفسه على ضوء هذه الآية ؛ ينظر قدر الاتباع عنده للرسول عليه الصلاة والسلام فهو المقياس الذي يظهر به هذا الأمر والميزان الدقيق الذي يتبين به هذا الأمر .

فمما يجب على المسلم أن يعرف به ربه أن ربه يحب ، ويجتهد أيضا في معرفة الأعمال التي يحبها سبحانه وتعالى من عباده ويرضاها عنهم حتى يجتهد في تطبيقها والقيام بها لينال بذلك محبة الله عز وجل .

فإذا أحبه الله اسمع ما في الحديث قال : ((إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى يَا جِبْرِيلُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فَلَانًا فَأَحِبَّهُ)) يعني فأحبه يا جبريل ((فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فَلَانًا فَأَحِبُّوهُ؛ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ)) لا إله إلا الله ! انظر هذا الخير العظيم إذا أخلص العبد مع الله وصدق وأقبل على الأعمال الصالحة بينه وبين الله صادقًا مع الله عز وجل وأحبه الله جل وعلا لإقباله وصدقه ونصحه وإخلاصه وجده واجتهاده وتقربه إلى الله ؛ إذا أحبه الله نادى رب العالمين جبريل «إني أحب فلانا» ، رب العالمين يقول لجبريل «إني أحب فلانا» ، ما أعظم مكانة من فاز بهذا الأمر ، ما أعظم مكانته أن يقول رب العالمين وخالق هذا الخلق سبحانه وتعالى إني أحب فلانا يسميه باسمه ، رب العالمين يسميه لجبريل باسمه يقول «إني أحب فلانا فأحبه» يأمر سبحانه وتعالى جبريل أن يحبه ، فيحبه جبريل ثم ينادي جبريل في أهل السماء : «إن الله يحب فلانا فأحبوه» فيحبه أهل السماء ، مر معنا قريبا ((أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع شبر إلا وفيه ملك ساجد لله سبحانه وتعالى)) ، كل هؤلاء بالآلاف بالملايين كلهم يحبونه ، يحبونه باسمه بشخصه ، أحبه الله ونادى جبريل أن يحبه فأحبه جبريل ونادى جبريل أهل السماء أحبوا فلانا؛ فأحبه أهل السماء، ويُطرح له القبول في الأرض ، وهذا هو معنى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] أي مودة في قلوب الخلق .

فهذه الأمور : محبة الله لعبده ، ومحبة أهل السماء له ، والقبول الذي يطرح له في الأرض لا ينال بالدعوى ولا ينال بالتظاهر ، لا يُنال إلا بشيء بين الإنسان وبين الله ؛ صدق مع الله وإخلاص لله وإقبال على الله، فهذا مما يجب أن يعرف الإنسان به ربه سبحانه وتعالى، أنه لا يفوز ولا يربح ولا يغنم ولا ينال سعادةً وطمأنينةً وقبولا وراحة في الدنيا والآخرة إلا بشيء بينه وبين الله يصدق فيه مع الله سبحانه وتعالى ويخلص فيه لله جل وعلا ، والأمور بيده سبحانه وتعالى ، فإذا أحب الله عبده لصدق العبد ونصحه وإقباله وجده واجتهاده نادى جبريل «أحب فلان» ، ينادي جبريل باسم الشخص أحب فلانا يذكره باسمه ، وجبريل يحبه وينادي أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه ؛ فيحبه أهل السماء ثم يطرح له القبول في الأرض . فهذا الأمر الذي هو محبة الله لعبده وثبوت المحبة صفةً له لا تُنال بمجرد الدعوى ، الدعوى رخيصة جدًا قالها كما قدمت لكم إخوان القردة والخنازير ، من لعنهم الله وجعل منهم القردة والخنازير هؤلاء منهم أخبر الله عنهم أنهم يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه ، فالكلمة رخيصة على اللسان سهلة على اللسان ، مجرد الدعوى لا يحظى الإنسان بمكانة ، لكن الذي يحظى بها شيء بينه وبين الله يصدق مع الله فيه .

فهذا الحديث يفتح لك بابًا في معرفة الله ، وأهمية الصدق معه والإخلاص له وحُسن الإقبال عليه ، وأن يكون الإنسان بينه وبين الله أعمال يكسب بها قربه وثوابه ونيل أجره ورحمته والنجاة من عذابه سبحانه وتعالى ، بمثل هذا ترتفع درجات العبد وتعلو منازلُه عند الله سبحانه وتعالى .

والله تعالى أعلم . وصلى الله وسلم على رسول الله .